شعر منثور
في
العربية والعرب

[من إنشاء فؤاد الخطيب أستاذ الآداب العربية في مدرسة غردون الكلية بالخرطوم]

لاجرم أن اللغة العربية ، أجزل اللغات السامية ، وأوسعها مجالا ، وأحكمها استعمالا ، لايذهب مرّ العشي بسلاستها ، ولا يعبث كرّ الغداة بطلاوتها .

ولقد طاحت دول ، وبادت ملل ، فاستسرّت لغاتها ، وعفت آياتها ؛ وتلك اللغة تدور مع الاحقاب ، في غلائل الآداب ، وغلواء الشباب ، لايرهقها هرم ، ولا يخلقها قِدم. فكأنها وهي ابنة القرون الخالية ، والامم الماضية، نشأت في اليوم الحاضر ، او أمس الدابر ، فجاءت دفعة واحدة مستوفية أقسام جمالها ، وصحة ابنية اسمائها وأفعالها ؛ تجول بها أسلات الالسنة واطراف اليراع ، في صدور المحافل وبطون الرقاع ، فتنظم فرائدها ، وتعقل شواردها . فلا تشذّ نادرة ، ولا تندّ بادرة .

أجل . ان السيف الباتر ، والجبروت القاهر ، والمكاتب المتاوجة بالزحام ، والمدارس المكتظة بالطلاب ، والصحف الذائعة في الآفاق ، والوفود الضاربة في الاصقاع — لم تحول لغة عن أصلها ، ولم تجذب أمة بحبلها . فأين ذلك مما وقع للعربية ، مع تلك الشراذم البدوية ؟ فانها لم تنهب الارض في قطار ، ولم تجزع [1] الفضاء في منطاد ، ولم تمخر البحار بالبخار ؛ بل جابت المسارح ، ورادت المكامن ، وطافت المجامع ؛ فولجت كل مصر ، وسكنت كل نفس ، وقالت لكل شيء : حسبك فانك عربي منذ اليوم .

فسقى الغيث ذلك العهد القديم ، ورعى الله ذلك العربيّ الصميم ؛ فلقد كان نورا في الظلمات ، وهدًى في الشبهات ؛ اذا جال في مضمار الفكر ، وراوح بين النظم والنثر ؛ صور على الطرس ، حقيقة النفس ، فناجتك بأسرارها ، وحدثتك بأخبارها ؛ فاذا الغيب تكاد تراه عيناك ، واذا الوهم تكاد تلمسه يداك .

---

١ » لعل أصلها : تزعج

فهكذا الأدب ، وكذلك العرب ؛ فلقد سبروا غور العلم ، ومشوا الى اعماق الفهم ، فانتزعوا العقول من عقالها ، واستلوا الوجود من العدم ، واستخرجوا اليقين من الريب ، وتغلغلوا بين الذرة واجزائها ، وتسرّبوا بين العصا ولحائها ، فكانوا وكل سحر غير سحرهم باطل ، وكل بلد خيموا فيه بابل

اللهم سبحانك ! اينطق العربي بالحكمة الناصعة ، ويهتف بالقافية الرائعة ، فتكاد لحلاوة أبياتها ، تقبل أفواه رواتها — وهو في ذلك المنقطع من الارض ، يهيم في ظلمات بعضها فوق بعض ، اذا مشت عيونه ففي صميم القفر ، واذا وقفت به فعلى اديم الصخر .. ؟

فلا يزال في الوجود ، كالمثل الشرود ، تتلقفه الاقطار ، وتتخطفه الاسفار ، فمن هضاب يحوم فيها كالعقبان ، الى بطاح يعمل فيها كالسّيدان ، ومن مجالدة زعزع نكباء تنسف التلال ، الى مكابدة هاجرة سجراء تأكل الظلال .

فما ثم مرتع شائق فيستمد من جماله البيان . وما ثم مورد رائق فيمتح من عذبه اللسان ، وانما هي ارجاء عابسة ، وبيداء طامسة ، تجول فيها الافكار فتكل ، وتدور فيها الابصار فتضل .

فسلام على تلك الجزيرة الجرداء ، ومرحى لتلك المجاهل الخلاء ، فوالله ما تعوزها الرياض مبثوثة الزرابي والانماط ، ولا الحقول مبسوطة البرود والرياط ، ولا النمير يترقرق ، على حصباء تتألق ، فقد نبتت فيها حسنات الزمان ، وتفجرت منها ينابيع العرفان ، فغنيت بنضرة الآداب ، عن بهجة الاعشاب ، وبكمال السكان ، عن جمال المكان ، بل كانت مسبح الروح الامين ، وموئل الدنيا والدين ، فتبارك الله احسن الخالقين .

فأي نياط لا ينقطع ، وأي مهجة لا تتصدع ؟ وقد أودى اولئك الكرام ، وتنكرت تلك الايام ، حتى تبازى الرُّهام ، واستنسر الحمام ، ولم يبق غير أمة مكسال ، لا تتحرك الا بزلزال ، ولا تقطع من اشواط الدهر ، الا مسافة العمر من القبر .

فأين بنو قحطان ؟ وفتيان عدنان ؟ فيهبوا بالنفوس من غمرتها ، وينهضوا باللغة من كبوتها ، فتلك مفاخر بلادهم ، وما تر أجدادهم ، ملء الانجاد والاغوار ، وطلاع

الدفاتر والاسفار ، وانها لتطوي بالمرء مراحل العصور والاجيال ، وتطل به على عالم الحقائق من ملكوت الخيال .

اما والله لولا تنطس بعض المتزمتين[1] ، وسدهم على اللغة أبواب التعريب والاشتقاق ، فحجروها في الحواشي ، واقبموها في المتون — لما ازورّ الطلاب عنها ، وامتلأوا نفورا منها ، وكان العلم كل العلم ان يمضغ المرء كلام غيره ، ويلوك أقوال سواه ، فيتشدق بالمذاهب العقيمة ، ويتبجح بالامثال السقيمة ، وان قعد به العجز عن انشاء فقرة ، وتصوير فكرة ، ولم يغن عنه سواد الحدود والمصلحطات ، وما افتنّ فيه من الشواهد والنكات .

ولا بدع فان الاصول وسيلة والانشاء غاية . ولشد ما بينهما من شاسع الفرق وواسع البون . وكم بين الماء والسراب ، والقشور واللباب !

وأما من رزق قريحة وقادة ، وبصيرة نقادة ، واحاطة بما لا مندوحة عنه من قواعد اللغة وأصول العربية ، ثم راض نفسه على مزاولة أساليب العرب ومناحيهم ، وتوفر على مطالعة تراكيبهم ومراميهم ، فقد اكتسب من ملكتهم ، ما أخرجه الى لهجتهم فبات وما يعترضه عيّ ولا ترتهنه لكنة ، ولا تحيف بيانه عجمة .

وهل البلاغة — لعمري — الاّ بصقال الديباجة ، ومتانة الاسلوب ، وحلاوة الأداء ، لتكون المعاني اعلق بالخاطر ، وأسرى في السمع ، وافعل في النفس ؟ أرأيتك — وقد ثقفتَ الالفاظ المتخيرة ، وعرفت أين تضع يدك في سبكها وتأليفها — كيف تهز القلوب وتخلب الالباب ، وتملك قياد الاهواء ؟ ..

ولله در ابي هلال العسكري اذ قال في الصناعتين : «ان مدار البلاغة عليه تحسين اللفظ . وليس يطلب من المعنى الاّ ان يكون صوابا» . وقال ابن الاثير : ان اللفظة الواحدة تنتقل من هيئة الى أخرى فتحسن أو تقبح . هذه لفظة الارض فانها لم ترد في القرآن الكريم الا مفردة سواء أفردت بالذكر عن السماء كما في قوله تعالى (والله أنبتكم

---

(١) المتزمّت من يظهر بمظهر الزميت وهو الكثير السكون والسكوت وقارا ورزانة ، والتنطس التأنق والتدقيق والاستقصاء في الاشياء . يريد مبالغة بعض أهل اللغة في المحافظة على القديم من استعمال اللغة

من الارض نَباتا) أو قرنت بالسماء مفردة كما في قوله تعالى (ويمسك السماء أن تقع على الارض الا بإذنه) أو مجموعة كما في قوله تعالى (الله الذي خلق السموات والارض) ؛ ولو كان استعمالها بلفظ الجمع مستحسنا لكان هذا الموضع أو شبهه أليق به. ولما أراد أن يأتي بها مجموعة قال (الله الذي خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن) وكذلك قول أفصح الخلق لبعض النساء « ارجعن مأزورات غير مأجورات ». وحسبك ان المعاني المنقولة من لغة الى أخرى تفقد ماءها ، وتفارق صفاءها ، وما ذلك الاّ لانها انسلخت من برودها المُعلمة ، وانخلعت من قوالبها المحكمة . فكانت شبحا ناحلا، وخيالا ماثلا .

وليت شعري ماذا يضر المعاني ، اذا أجيدت لها المباني ، فكانت شَرَعاً في المتانة ، وسواء في الصياغة ؟ ولا سيما وقد جاشت غوارب العجمة ، وفشت لوثة اللحن ، ومست الحاجة الى شد أواصر اللغة ، وتقويم مناآد اللسان .

الا وانه لمن البرّ بالادب ، والغيرة الصادقة على العرب ؛ أن ينسج المتأدب على منوال الفصحاء ، ويطبع على غِرار البلغاء ، — فذلك تاريخ آبائنا ، يصيح بنا من ورائنا ، وكله دموع تترى، لا ألفاظ تتلى ، (وما يذكر الا أولو الالباب) والله الموفق الى الصواب .